المحور السابع: الاستشراق والشعر الجاهلي، غوستاف فون غرونباوم

المقدّمة:

في خضم الاهتمام الغربي المتزايد بالثقافة العربية والإسلامية منذ أواخر القرن التاسع عشر، برز عدد من الدارسين الذين حاولوا تقديم تراث أدبي عربي قديم في إطار بحث علمي ونقدي حديث، من بين هؤلاء الباحثين، يحتل غوستاف فون غرنباوم مكانة متميزة، إذ انخرط بعمق في دراسة الشعر العربي القديم — لا سيما الشعر الجاهلي — من منظور استشراقي يسعى إلى استجلاء أبعاده الأدبية، الاجتماعية، والحضارية.

يمثل الشعر الجاهلي، باعتباره من أقدم أشكال التعبير الشعري العربي، إرثًا ذا أهمية بالغة في فهم مرحلة تاريخية وثقافية محددة؛ فهو مرآة تعكس بنية نفسية، لغوية، ومجتمعية لعرب الجزيرة في العصر ما قبل الإسلام، وعندما يعيد باحث مثل غرنباوم قراءة هذا الشعر، لا يفعل ذلك بوصفه نصوصًا تراثية جامدة، بل باعتبارها وثائق نفسية وثقافية — ما يتيح مقاربة نقدية متعددة الأبعاد، تربط بين النص، المجتمع، والوعي التاريخي.

ومع ذلك، فإن هذه المقاربات الاستشراقية لا تخلو من التعقيد والجدل، فبينما تفتح نافذة على قراءة موضوعية وتحليلية للشعر الجاهلي، فإنها في بعض الحالات تشكّك في أصالة النصوص أو تنظر إليها بمعايير نقدية غربية قد لا تأخذ في الاعتبار خصوصية السياق الثقافي العربي.

من هذا المنطلق، يأتي هذا الدرس ليس فقط كاستعراض لسيرة غوستاف فون غرنباوم وإسهاماته، بل كمحاولة نقدية لإعادة التفكير في العلاقة بين الاستشراق من جهة، والتراث الشعري العربي من جهة أخرى — محاكاة لتقاطع بين التاريخ، النقد، والهوية، ألفت النظر إلى أن قراءة الشعر الجاهلي عبر منظار غربي قد تفضي إلى قراءات خصبة، لكنها أيضاً تثير أسئلة حول الانتماء اللغوي، الأصالة، ومقومات التلقي.

فيما يلي، سنستعرض بإيجاز خلفية الباحث ومكانته، ثم نتناول رؤيته للشعر الجاهلي، المآلات النقدية التي طرحها، ومن ثم إشكاليات هذه المقاربات.

1. من هو غوستاف فون غرونباوم؟

- جرونباوم وُلِد عام 1909 في فيينا بالنمسا، وتوفي عام 1972 في لوس أنجلوس.

- حصل على شهادة الدكتوراه في "الدراسات الشرقية" من جامعة فيينا عام 1931، وكان موضوع أطروحته عن الشعر العربي الكلاسيكي.
- بعد اندماج النمسا ضمن ألمانيا النازية عام 1938(Anschluss) ، هاجر إلى الولايات المتحدة، حيث عمل في معهد آسيا في نيويورك، ثم في جامعات مثل شيكاغو، وأخيرًا أصبح أستاذًا لتاريخ الشرق الأدنى في جامعة كاليفورنيا.
- عرف بإنتاجه العلمي الغزير والمتنوّع، شمل دراسات في الأدب العربي، الحضارة الإسلامية، تاريخ الثقافة، والبحث في الشعر الجاهلي والكلاسيكي.
- أحد مؤلفاته المعروفة: *دراسات في الأدب العربي* (نُشرت ترجمة عربية له) والتي تضم مقالات حول مختلف جوانب الأدب العربي.

إذاً، جرونباوم يمثل جسرًا أكاديميًا بين الثقافة العربية الكلاسيكية وبين الدراسات الغربية/الاستشراقية في القرن العشرين — ما يجعله مرجعًا مهمًّا عند الحديث عن "الشعر الجاهلي في نظر الاستشراق."

2. موقف غرونباوم والدراسات الاستشراقية من الشعر الجاهلي

عند معالجة الشعر الجاهلي (أي الشعر العربي ما قبل الإسلام) — وهو تراث مركزي في الأدب العربي — اتخذ جرونباوم وغيره من المستشرقين تحليلات نقدية ذات ملامح خاصة، أهم ما يميّز هذه المقاربة:

◆الاستخدام لمعايير نقد أدبي / موضوعية غربية:

- في دراسته بعنوان "Pre-Islamic Poetry" (نشرت عام 1942) طرح جرونباوم — مع غيره من المستشرقين — فكرة أن القصيدة الجاهلية يمكن أن تُقيم بواسطة معايير نقدية "عالمية" أو "أدبية عامة". كما يُقيم الشعر في أي تراث آخر.
- بمعنى أن الانسياب الداخلي للقصة أو الموضوع(coherence, unity) ، البناء الشعري، والانسجام الفني — ليست قيمًا تُفهم فقط ضمن الإطار العربي . الجاهلي، بل يمكن فحصها عبر منظور نقدي حيادي.

◆شكّ في الصورة التراثية — نقد لمنظومة البعث/التقليد والحفظ:

- كثير من الدراسات الغربية على الشعر الجاهلي بحثت قضية التوثيق: هل ما وصلنا من قصائد يمثل أصلًا جاهليًا حقيقيًا، أم أن عملية النقل — شفهياً ثم كتابياً — وفّرت إمكانيات للتحريف أو "الاستحداث"؟
- من هذا المنطلق، يرى بعض مستشرقين — ضمن دائرة جرونباوم — أن القصائد قد تفتقر إلى وحدة موضوعية أو بناء داخلي متناغم، بمعنى أن بعض القصائد قد تكون مجمّعة من مواضيع متعددة، أو أن الأجزاء لا تنسجم كما في القصائد القديمة الأصيلة.
- هذه القراءة النقدية تؤدي إلى التقليل من قيمة بعض النصوص الجاهلية أو اعتبارها أقل أصالة — وهو ما أثار جدلاً كبيرًا في الأوساط العربية التقليدية.

◆منظور حضاري/ثقافي: الشعر الجاهلي ليس مجرد نصوص، بل جزء من الثقافة

- رغم النقد، جرونباوم لم يقتصر على الشعر كمادة لغوية فقط، بل ضمنه في بحثه عن حضارة إسلامية (وفي بعض مراحلها الجاهلية) كجزء من التاريخ الثقافي العام.
- بذلك استعمل الشعر الجاهلي كدليل على مستوى ثقافي، اجتماعي، إنساني في المجتمع العربي القديم، مقرونًا بمقاربة تحليلية موضوعية — ولعله كان ينوء إلى فكرة أن العرب القديمين كانوا حضارة في معنى إنساني/ثقافي، وليس مجرد قبائل منعزلة.

3. إسهامات جرونباوم ودوره في نقل الشعر الجاهلي إلى البحث الغربي:

- بفضل أعماله الأكاديمية، أصبح الشعر الجاهلي خاضعًا لمنهج بحث علمي مقارنة — لا فقط كموروث شفهي/تراثي، بل كائن أدبي يمكن تحليله وفحصه وفق أدوات النقد.
- ترجماته، تحقيقاته، ودراساته سمحت بأن يصل التراث الشعري العربي إلى جمهور باحث في الجامعات الغربية؛ ما وسّع دائرة المعرفة بأدب الجاهلية خارج العالم العربي.
- فتح نقاشات منهجية حول أصالة النصوص، طرق النقل، وحدود التحليل — ما أظهر أن التراث العربي ليس قصة ثابتة، بل نصوص قابلة للنقد، التحقيق، والمراجعة.

4. الانتقادات والإشكاليات: الشعر الجاهلي بين أصالة النص وسلطة المستشرق

رغم المزايا والإسهامات، هناك عدة إشكاليات نقدية تُثار حول مقاربات غرونباوم والاستشراق عموماً عند التعامل مع الشعر الجاهلي:

- **إمكانية التجريد والحكم بمعايير غربية:** حين يتم تقييم الشعر الجاهلي بمعايير نقدية عالمية قد لا تأخذ في الاعتبار السياق الثقافي، الاجتماعي، واللغوي الخاص بالعرب في الجاهلية، هذا قد يُفرط في تغريب الشعر، أو اقتطاعه من واقعه.
- **شك في التوثيق والأصالة:** كثير من قصائد الجاهلية وصلت عبر أجيال بالنقل الشفهي ثم التدوين في عصور لاحقة، ما يثير التصور بأن بعض النصوص قد تكون مُضافة، معدّلة، أو مركبة — وهو ما يقلّل من مصداقيتها عند بعض الباحثين الغربيين.
- **منظور استشراقي/ثقافي – أيديولوجي:** بعض الدراسات تحاول قراءة الشعر الجاهلي من زاوية حضارة شرقية متخلفة أو مراحل أولية قبل الإسلام، ما يعكس أحيانًا استخدام التراث لخلفيات معرفية/سياسية غربية — وهو ما انتقده باحثون معاصرون.
- **إهمال البعد الشفهي، الشعبي، والمتغيرات الثقافية:** التركيز على النصوص المكتوبة أو المحققة يطغى على البعد الشفهي، التعدد القبلي، التباين اللغوي، أو البعدين الثقافي/اجتماعي في حياة العرب قبل الإسلام — ما يجعل الصورة جامدة أو جزئية.

الخاتمة:

غوستاف فون غرونباوم يمثل حالة محورية في تاريخ الاستشراق المعاصر: باحث أجنبي هاجر من أوروبا إلى أمريكا، وثّق الشعر الجاهلي ضمن رؤية نقدية ومقاربة حضارية، إسهاماته سمحت بإدخال التراث العربي في المنظومة الأكاديمية الغربية، وبفتح مناقشات حول أصالة الشعر، شروط التلقي، وحدود النقل.

لكن هذه المقاربات ليست خالية من الإشكالات: فهي تحمل نوعًا من التغريب والترسيم المعرفي لنص عربي، قد يتناسى البعد الثقافي الخاص، أو يفرض معايير قد لا تنسجم مع روح الشعر العربي القديم.

من هذا المنظور، فإن دراسة جرونباوم والشعر الجاهلي ليست مجرد تأريخ، بل نقد معرفي — تُظهر كيف يمكن أن يُعاد إنتاج التراث وفق رؤى غريبة، وما تتطلبه العودة النقدية من وعي وقراءة مضاعفة.